الادب التركي

في نهضته الحاضرة

عرض للأب اندري لوجنيل اليسوعي

على جبهة البناية الرائعة المخصصة لمعهد اللغات والتاريخ والجغرافية في أنكرة ، نُقشت ، حروفاً ضخمة ، هذه العبارة من اقوال اتاتورك : « Hayatta en Hakiki Murçit Ilmidir » وهو ما يمكن تعريبه بـ « ان اصدق مرشد في حياة الانسان هو العلم » انها لدعوة خفيّة الى العمل ، يواصل القائد العظيم حثّ مريديه بها — دعوة لم تبقَ دون جواب . ذلك ان الحياة العسكرية التركية اشبه ما تكون اليوم بالفوّار ، كأنها ماء حُبس طويلاً في الاعماق ، فاندفع وانتشر يحطّم الاسداد الضيّقة التي تصدّه . ثم اخذ ينتظم في مجرى مخطّط . الّا انّ غمره لا يزال يتراكب على شيء من الصخب — فمن ايّ غور ثريّ ينبجس حتى يطفو هكذا وينتشر ؟ علينا لكيما نتبيّن الامر ونتوضحه ، ان نعرض الى الاعماق التي فيها الينابيع — اي الى الغياهب الحالكة البعيدة من الشخصية القوميّة ، في حاضرها والماضي . والواقع ان الكاتب ، اذ يدفعه شيطانه الى التعبير ، يوزون الكلم او ينثوره ، كما تتكلزه نفسه ، فانما يزعم انه ينطق بلسان الجمهور الذي منه انبثق والذي يبقى مشدوداً اليه بعرى من العواطف والاماني الواحدة الصميمة . مطمحه في ان يفصح عن الذات القومية باخلاص يتمكن معه كل فرد ان يلقى بغبطة فلذةً من ذاته تنعكس في صفيحة النتاج الادبي . امـا الذات القومية فانما الاجيال هي التي صهرتها على مهل . وبالتالي فان علينا ، لكي نخطى بمفتاح للخلق التركي ، ان نتمكن من الانحدار ، لا الى اعماق الشخصية القومية وحسب ، بل الى غياهب ذلك الماضي الذي وهمنا انه اندثر في حين لا يزال مقيماً . يجب ان نحظى بالزجالين العتاق يستثيرون الجماعات فتتبعهم متحمسة للاهازيج المطولة تتساوق وايقاع العود والساز والدمباق .

يجب ان نبعث الحياة صاخبة عنيفة في تكايا الدراويش ، يجب ان نستقي من مخطوطات استنبول معيناً تعددت وجوه غناه اذ فيه اخبار الرحالة ، ومواعظ الحكماء ، وتعاليم الفلاسفة ، وانطلاقات المتصوفين ، بل يجب ان نلجّ ايضاً في الغوص لنسمع ، عبر الاجيال ، اصداء الاهازيج الشعبية القديمة التي كان الاتراك القدامى يهزجون بها بين موقعة وموقعة ، او تلك الاناشيد الحربية الموجهة لحماستهم ، وهم منطلقون لمهاجمة ملك الصين او لدك حصون آسية الوسطى . ذلك لان هذا الماضي السحيق اللاواعي هو ما يعطي لمجرى الفكر التركي الحديث زخمه وطابعه الخاص . وان تعذّر علينا اليوم ان نبلغ ، في انحدارنا ، الى هاتيك الاعماق ، فبوسعنا على الاقلّ ان نحاول استنباش العروق التي في غور الارض والتي منها تنبع العين الحالية ، اعني اولئك الروّاد من الجيل الماضي الذين لا يزال ذكرهم حياً والذين يحتفظ النتاج الحديث بطابعهم . لاننا اذا طفقنا نتحدث عن الادب التركي في يومنا دون ان نشير ولو اشارة عابرة الى سلفائه وافرانه المباشرين ، نكون كمن يقتطع من الشجرة عروقها وليس بعيداً المجال الذي يوصلنا الى الاسلاف . يكفي ان نجوب الهضاب المخضرة من ايب (Eyb) وفاتيح (Fatih) والرملي حصار (Rumeli hissar) وسكوتاري (Scutari) وقاضي كوي (Kadi Köy) ، فنلقاهم جماعة اثر جماعة .

هنالك يرقدون تحت عمائم الرخام ، في اروع بقعة من الدنيا ، وفي ظلّ سرو هرم يتطاول نصالاً دكناء نحو زرقة السماء . فكأنهم لا يزالون عبر القبر ، في خشعة الصمت ، ينشرون هالة الشعر حول الحاضرة العريقة التي عنوها في حياتهم . فلقد عاشوا العمر يهيئون للامة مستقبلها ، او انهم جادوا باعمارهم في هذا السبيل . اولئك هم الرواد الجسورون الذين ارغب ان استهلّ الحديث بذكرهم .

هلا رجعنا القهقرى الى العهد المسمّى بعهد التنظيمات ، اي العهد الاصلاحي . كانت السلطنة العثمانية العجوز تشعر انها مضعضعة حتى في الاسس ، تحاول ان تتدارك امرها وتجدد احوالها . كان المفكرون يومها ، في طليعة حركة الانبعاث ، واثارهم مفعمة بارادة الحياة .

فكيف كانت حالة الادب يومذاك ؟

كان الادب امينًا لتقاليد السلف يهيمن عليه النتاج الشعري . وكان الشعر يسير في مجرى مزدوج استمر حتى الحرب العالمية الاولى: كلاسيكي يستوحي الفارسية على الاخص والعربية – وشعبي ذو تعبير اصفى وحيًا ينشد اكثر مما يلقى .

ان واصف Vasif ، وعزت ملا Izzet Molla وعاكف باشا Akif Paşa هم اسياد الشعر التقليدي ، بينما كان ارضروملو امره Erzurumlu Emrah اشهر الكتاب الشعبيين . اما بين ارباب النثر فتميز اسعد افندي Esad Efendi لعنايته بصفاء اللغة . بيد ان الاصلاحات لم تكن بعد قد اثارت التيار الاصلاحي العميق بانتظار سنة ١٨٦٠ حيث تظهر مدرسة جديدة على شعار « الفن في سبيل المجتمع » Cemiyet için Sanat – وبالتالي فان شعارها يفصح عن مراميها العامة–انها ستعمل لتحميل المجرى الادبي كل اماني الاصلاح الاجتماعي الحاقة في القضاء – اما متزعمو هذه المدرسة فهم سيناسي Sinasi (١٨٧١ †) ضيا باشا Ziya Paşa († ١٨٨٠)وخصوصاً نامق كمال Namik Kamal(١٨٨٨†).

كان هؤلاء الثلاثة اجرأ الرواد ، جعلوا هدفهم الاول ان ينقلوا حيوية جديدة الى العروق التركية ، وذلك بان يعاونوا مواطنيهم على ايقاظ الحس الوطني في الضمائر وعلى اضرام القلوب بحب الوطن ، في وجهه الجديد المتراآي من خلال الدستور ، وعلى تقييم الحقوق الاساسية للشخصية الانسانية.

كان عليهم ، تحقيقاً لهذا الهدف المثلث ، ان يتوسلوا باساليب جديدة اوفى من القديمة . وهكذا توجب عليهم بادئ ذي بدء ان يجعلوا اللغة في متناول الشعب ، فتعمدوا الكتابة بلغة سهلة خالصة التركية – ثم كان عليهم ان يطوّروا القالب الشعري ويحملوه مؤثرات شديدة مباشرة . وراحوا من ثم – ولعل هذا اقصى ما ابتدعوه من التجدد – يخاطبون الشعب بالصحيفة والكتاب والمسرح . فتوالت مذاك كتب الامثال والحكايات القديمة ، والمؤلفات في الحكم الشعبية ، والابحاث التاريخية ، واولى المحاولات القصصية . ومالوا شطر الغرب يكثرون موحياتهم – توجهوا نحو فرنسة على الاخص ، فنشروا ،

مترجمة الى التركية ، عدداً من مؤلفات الادباء الفرنسيين ، نذكر منهـا مسرحيات موليار وراسين ، وقصائد لافونتين ، وكتب فنلون وجان جاك روسو – بل ان نامق كمال انبرى يكتب في الدفاع عن رينان.

وبديهي ان هؤلاء الرجال الذين يضطرم فيهم الشوق الى الحرية لم يسهل عليهم ان يتابعوا رسالتهم في ظل نظام اوتوقراطي مثل الذي كان التركية في ذلك العهد . فانقضى شطر مديد من عمرهم في المنفى . الا انهم لم ينفكوا عن الدعوة للاصلاح حيثما كانوا سواء في باريس ام في لندره ام في سواهما – عاشوا روّاداً متشردين تكتنفهم الصعوبات لانهم مثاليون تعلقوا في خدمة هدف وطني جبار – الا انه كان ينبغي ان يكون عملهم اقل عنفاً من حيث طابعه ليتوصل الى التأثير في البلاد ذاتها ويتغلغل الى اعماقها . وهذا ما تنبه اليه من تلاهم اذ راحوا يؤسسون مدرسة جديدة على نظرية « الفن للفن » Sanatiçin Sanat كانت صلتها بالسياسة والاجتماع اوهى ، وحصرت اهتمامها باصلاح اللغة وتجديد الادب . انما اخذ عليها تقليدها الغرب في ذاك التجدد ، على تفاوت في النجاح ، بحيث وقعت في رومنطقية مائعة . ولكن هذه المدرسة خلفت آثاراً قيمة ، واليها ينتسب ثلاثة يعتبرون من كبار الادباء : رقاعي زاده اكرم Recai Zade Ekrem ، وعبد الحق حامد Abdulhak Hamid وسامي باشا زاده سيزاي Sami Paşazade Sezai .

خلف اكرم عدداً من المجموعات الشعرية ، تزدحم فيها اسوء الخط القوالب الشائعة في ذلك العصر ، كما خلف ثلاث روايات ، ومسرحيات وترجمة لاتالا ، ومحاولات في النقد وفي الدراسة التاريخية ، فضلاً عن مقالاته الادبية العديدة.

اما عبد الحق حامد ، وقد ولد سنة ١٨٥٢ وعاش حتى سنة ١٩٣٧ ، فاميز ادباء هذه المدرسة . ان ثقافته المطيبة واطلاعه العميق على الاداب الفرنسية والانكليزية اعطت نتاجه الادبي مظهراً من الشمول . كان خصب الشاعرية ، خلف عدداً من المسرحيات ، بينها اقتباس شعري لـ « السيد Le Cid » ولمسرحيات « هوراس Horace » . اما « فنتن Finten » اشهر مسرحياته ، فقد استوحاها من الائمة الانكليز.

واما سامي باشازاده سيزاي (١٨٥٩ — ١٩٣٦) فقد اشتهر بحكاياته التي نهج فيها على الاسلوب الاوربي ولكنه كان اميل الى الواقعية وابعد عن الرومنطيقية من اقرانه ، مما يقربه الى ادباء الفترة التالية .

اذا كان جماعة « الفن للفن » يبدون على عقلية اوفر « برجوازية » من جماعة نامق كمال ، فانهم والحق يقال قد حسنوا القوالب الشعرية بما انهم قربوها من القوالب الاوروبية ، واغنوا اللغة دون ان يتنكبوا بها عن الجادة الكلاسيكية ، فضلاً عن انهم حملوا معاصريهم على الاطلال على الغرب .

ويحسن ان نجمل في مصف هؤلاء الادباء الكبار عدداً من الكتاب وجهوا جل اهتمامهم نحو الادب الشعبي مثل احمد مدحت Ahmed Midhat ، وابو الضيا توفيق ، ومعلم ناجي — فان لغتهم اقرب الى التركية المتداولة وآثارهم اخلص تأثيراً .

وتتقدم الحركة الاصلاحية في السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر . فنرى جماعة جديدة تلتف حول مجلة ادبية جديدة Serveti Fenun ان المرحلة من تاريخ الادب التي تلقبت باسمها تبدو اوفر خصباً وانشط حيوية ، كأنها ارتعاشة اعنف تتوسط فيها الانطلاق المقبل . والت هذه المدرسة نشاطها في نطاق الفن الفن ، لان عمل الكاتب في السياسة كان لا يزال ، بالواقع ، في حيز المستحيل . فتميزت بصفاء البيان وبالمظهر الارستقراطي المتأنق .

اسس احمد احسان مجلة الفنون سنة ١٨٩١ ، وراحت تنشر الى جانب مؤلفات تركية خالصة ، كثيراً من الترجمات عن الفرنسية — واخذ شعراؤها امثال توفيق فكرت ، شهاب الدين وسليمان ناصيف ، يتباعدون عن الاساليب القديمة . في تلك الحقبة ظهرت القصيدة القصيرة Sonnet ، واخذ يتكامل كيان القصة والاقصوصة على يد خالد ضيا ، ومحمد رؤوف ومحمد جاهد يالشين (الذي زار لبنان في العام الفائت) — اما الادباء الشعبيون فاشهرهم في تلك الحقبة حسين رحمي واحمد راسم .

وتجدر الاشارة الى حركة رصينة هدفت الى التعمق في الدراسات التركية . فاذا احمد وفيق باشا ينقل كتاباً في اللهجة الجغتائية Çagatay ، وينشر اول

قاموس في العامية – واذا سليمان باشا يصدر محاولة في تاريخ الاتراك القدامى، واذا شمس الدين سامي يشر اول معجم تركي في الف وخمساية صفحة، وينقل لاول مرة، الى التركية الحديثة نصوص الارضون القديمة التي كان قد نشرهـا رادلوف – واذا نسيب عاصم يحي كاتبين من القرن الثاني عشر ويترجمها – واذا احمد حكمت ينشر، في جملة ما ينشر، دراسة عن تقاليد الاناضول وقصص اليوغور – واذا محمد امين يورداقول ينشر (١٨٩٩) ديوانه Türkc Sürler على ايقاع جديد تختلج فيه النفس التركية :

« انا تركي خالص، ايماني كبير وقومي كبار .

ان صدري، بل كياني كله، يتأجج بهذا الغرام »

Ben bir Türküm, dinim cinsim ulaudu
Sinen özün ateş ile doludure.

وهوذا مقطع من احد مؤلفات الروائي رفيق خالد، رسم فيه، بدعابته المعروفة، صورة الشعراء الشباب الملتفين تحت راية « سرفتي فنون » :

« طرابيشهم محددة وصلبة لانها مبطنة بالكرتون . تتهدل شعورهم فضفاضة مجعدة، فكأنّ رؤوسهم واجهة تعربش عليها النباتات . قباتهم منشاة، صلبة ومحددة، مثل طرابيشهم . اما كرافاتاتهم فلها طرف في رفع الخيط وطرف عريض يثل الصدر . واما البنطلون والجاكيت فعلى ضيق غريب . حذاءهم ينتهي برأس ضيق محدد، له كعب في استدارة البيضة . شواربهم معقوفة بكياسة ومجعدة بالكوسماتيك . اما بشرتهم فمن لون الورق المندى كأن العروق ناقصة من الدم، فهيآتهم كئيبة – يأخذهم السعال من حين الى حين بشكل يدمي الفؤاد . . . انهم صبية يتوجب ارسالهم الى المصحّ . . . »

ويهلّ القرن العشرون فاذا الحركة الادبية تسير في مجرى مثلث : ادب انيق يهيمن فيه الانتاج الشعري، غربي الوحي عثماني التعبير . وادب شعبي اقرب في تعبيره الى اللهجة التركية الاصلية (اللهم الا في المدن حيث تعكر صفاء اللهجة وتعربت) ثم نشاط في استجلاء التقاليد التركية الخالصة .

ويعلن الدستور سنة ١٩٠٨، فيبزغ عهد جديد في الصعيد الفكري، خصوصاً وقد كانت الطرق معبدة امام الفكر المتحرر . فلا بدع ان تعرف

السنوات الاولى غلياناً مزبداً ، اذ راح شيوخ الكتاب يغالون في اظهار تطورهم ، بينما كان حماس الشباب يدفعهم الى التجدد في كل امر ويحملهم على تقويم كل شيء تقويماً نهائياً . وبتألف عدد من الاندية الادبية ، بينها ثلاثة كان لها تأثير خاص في الحركة الاصلاحية ، وهي : نادي فجر المستقبل Fecri Ati — الجمعية التركية Turk Dernegi وخصوصاً جماعة الاقلام الفتية Genç Kalemler

اما شباب « فجر المستقبل » (وبينهم المع اسماء الادب المعاصر كاحمد هاشم Ahmed Haşim ، فؤاد قوبرولو Fouad Koprulu ، عبدالله صبحي Abdallah Suphi ، رفيق خالد Rafik Halid ، يعقوب قدري Yakub Kadri فقد توافقوا ردحاً من الزمن مع شيوخ مجلة Serveti Fünun . ففي ١١ شباط ١٩٠٩ اذاعوا بياناً على صفحات المجلة معبروا فيه عن ارادتهم بالرجوع الى اسلوب ادبي خاص الارومة التركية وموافق لنزعات الشعب .

الا ان اهم مركز تبلورت فيه الآمال الفتية التي كان يترقبها الادب فسالونيك حيث كان مقرّ حزب تركية الفتاة عند اعلان الدستور ومنذ سنة ١٩١٠ ظهرت في سالونيك مجلة جديدة اسمها «الشعر والجمال « Hüsün ve Şür » بادارة علي قنيب يونتم Ali Canib Yontem . وما لبثت في سنة ١٩١١ ان قلبت اسمها الى «الاقلام الفتية» — وكان من اوائل معاونيها عمر سيف الدين ، وخصوصاً ضيا غوقلب « Omer Seyfeddine et Ziah Gokalp » الذي سيكون لشخصيته القوية كل الفضل في توجيه عدد كبير من الشبان الى الانضواء تحت شعار المجلة . اما الاصلاحات التي كانوا يريدون فرضها على اللغة فهذه اهمها :

١ — الاستغناء عن بعض علامات الجمع والكلمات المركبة الدخيلة من العربية والفارسية

٢ — استعمال كلمات تركية صرفة للتداول والتعليم .

٣ — تبني الكلمات التي يستعملها الشعب على ان لا تأتي من تراكيب مصطنعة .

وهكذا اخذت الانواع الادبية تتطور بسرعة بفعل هذه الجماعات الادبية الفتية . ففي النثر ، انتشرت الصحافة انتشاراً واسعاً وتكاثرت المؤلفات

القصصية والتاريخية . اما الشعر فراح يستوحي الالهام من المنابع القوميـة العريقة . واخذ الشعراء يتعاونون في تجديد القوالب والاساليب حتى انهم صاروا يعتمدون ، بعد اصلاح الاملاء ، القوافي والتقطيع . . . عـلى غرار الشعر الاوربي . وراح الادب في صعود صادق منذ السنوات المضطربة التي سبقت الحرب العالمية . حتى اذا ظهر اتاتورك كانت البذور التي غرسها الشباب في مطالع القرن تعطي ثمرًا يانعاً .

ان مجال الوقت قصير امامنـا لكي ندرس الادب الحديث ونرافق تطوراته ، فامل الخير ان نتعرف اليه من خلال رجاله ، وعليـه سأقدم نخبة من اقوى شخصيات الحركة الادبية الحالية ، تتكـون من خلالهم تمدد وجود الحركة وتنوعها — فلنبدأ بواحد من المقدمين وقد استلفت الاشارة اليه : ضيا غوقلب .

ولد ضيا سنة ١٨٧٥ ، في دياربكر ومات سنة ١٩٢٤ في استنبول . هو نموذج من الجيل الذي قام بالثورة ، على كونه قد مات قبل ان ينعم بثمارها . وهو ايضاً من ائمة الذين اشترعوا للمدارس الادبية اصولها الفنية . كان اديباً متين الثقافة ، يهتم بالفلسفة اولاً وبعلم الاجتماع . وكان الى ذلك صحافياً من القلم ومنشئاً متميزًا ، كما كان يقول الشعر في بعض ساعاته . وقد اثر تأثيرًا كبيرًا في الشبيبة المثقفة في مطالع القرن .

كان ابوه امين المحفوظات في ولاية دياربكر ، يحرر في الصحيفة المحلية ويعد بين الشخصيات المميزة في محيطه . تتلمذ على نامق كمال وغدا من المؤمنين بارائه . وبفضل تشجيعه انصرف ابنه ضيا بحماس الى ارتشاف العلم ، متخرجاً من المدرسة الحربية ومن المعهد العالي . وما لبث ان اتقن العربية والفارسية والكردية والفرنسية ، واظهر ميلاً خاصاً للفلسفة ، وعلى الاخص لفلسفة الاسلام . واعجب مثل ابيه بنامق كمال وتشرب من روحه ومثله في سبيل الحرية . الا انه ما لبث ان عانى ازمة نفسية حادة عندما تجلى له انه يستحيل عليه ان يحقق مشاريعه المثالية . وتفاقم يأسه على اثر موت والده خصوصاً وقد مني بخيبة عاطفية ، فرأى ذات صباح ان افضل وسيلة للخلاص هي ان يرمي

صدغه برصاصة . ولكن الرصاصة لم تقتله بل جرحته . فما ان استعاد العافية حتى تجالد وتعلق بالحياة وبمم استنبول ليستكمل معارفه وثقافته . وما عتم هناك ان انخرط في جمعية سرية الفها طلاب المعهد الطبي. ولكن رسالة كتبها ووقعت في يد الشرطة فضحت امره . فاعتقل ومكث تسعة اشهر في السجن ثم أبعد منفياً لديار بكر . وكان ان هذه الاقامة الجديدة في وطنه اتاحت له الاتصال المباشر بالشعب، كما تسنى له حفظ القرآن ودرس اصول الدين . وعداة انقلاب سنة ١٩٠٨ اسس في ديار بكر فرعاً لجمعية الاتحاد والترقي ونشر صحيفة . وفي سنة ١٩١٠ قصد سالونيك ليمثل الفرع في مؤتمر عام عقدته الجمعية . وانتخب عضواً في المجلس الاداري. وبقي في سالونيك يتعاون وعلي قنيب وعمر سيف الدين في تحرير مجلة الاقلام العثية التي سبق الحديث عنها . وكان يوقع مقالاته بامضاء « عوقاب » فتغلب عليه اللقب . وبعد حرب البلقان رجع الى استنبول مع اللجنة الادارية ، فواصل الكتابة ونشر « المجلة الجديدة Yeni Mecmua » . وتعاظم شأنه لدى الشبيبة حتى اقد جاوزت له هيبة رسول وتأثيره . وعقيب الحرب الكونية نفاه الانكليز الى مالطه ، الا انه تمكن من الوصول الى الاناضول حيث واصل عمله دون كلل ، فأنشأ مجلة جديدة في ديار بكر دعاها « المجلة الصغرى Kuçuk Mecmua » وبعد ان صارت انقره العاصمة الجديدة استدعي اليها وتولى مهام مدير معاون في التربية الوطنية ومدير لجنة المنشورات والترجمات . وانتخب نائباً في المجلس الوطني الكبير . ونشر عدداً من الكتب المدرسية في التاريخ والاجتماع — ومات في ٤ تشرين الاول سنة ١٩٢٤ اثناء عملية اجريت له في استنبول .

كانت تسيطر على هذه الحياة المضطربة التي عاشها ضيا فكرة رئيسية هي تحرير الشعب سياسياً وثقافياً . وكان هذا هو المثل الاعلى الذي وضعه شبان الاتحاد والترقي نصب اعينهم ، الا ان ضيا هو الذي عبر عنه بقوة وجلاد . وكان يتمثل الروح التركية في العودة الى التقاليد الطورانية العريقة ، وهذا ما اوحى دعوته لتقارب الشعوب الاسيوية الناطقة بالتركية ، وتفاهمها . قال في احد مؤلفاته : « التترك هو إكبار الامة التركية وعبادتها » . وقال في موضع

اخر : « ليست الامة في وحدة الدم او الجنس او الارض او السياسة او الحكومة . الامة هي جماعة من البشر توحد بينهم لغة واحدة ، وايمان واحد ، وحضارة واحدة ، وتجمعهم عرى تربية واحدة » وكان موقفه من اللغة موقف الاقلام الفتية ، وقد المحنا اليه ، الا ان ضيا عبر عنه بهذه الرباعية :

اللغة الجميلة عندنا هي التركية	Guzel dil türke bize
كل لغة سواها ليست سوى كلمات	Başka dil gece bize
ولهجة استنبول في سمعنا	Istanbul Konuş Masi
اطرب اللهجات وارقها	En Saf en ince bize

كان ضيا طيلة حياته عدوًا للفردية في الصعيد الاجتماعي ، يبشر بحرارة بقوة الاتحاد ويدعو الاتراك اليه . وقد سارت له اقوال كالامثال لبيانها الجامع المانع ، كقوله : « لا انا ، ولا انت . بل نحن Ben, sen yokuz, biz varız.

وبالرغم من انصرافه الكلي الى العمل في سبيل الاصلاح الاجتماعي وفي سبيل تطهير اللغة ، وبالرغم من نضاله الصحفي ، فقد كان شاعرًا مرموقًا ينظم على المنهج الاوروبي.

كان من الضروري ان نبدأ بابراز هذا الوجه الرائع . فان ضيا من اكبر رجال جيله ، هو عالم عامل دفع من شخصه وخاطر بحياته . ودمغ تركية الفتية بطابعه بفضل نضاله الملتهب وتفكيره المتين ، لذا اعتبرت وفاته خسارة وطنية .

❀

وارغب الآن ان اعرض لوجه اخر جذاب ، كان صديقًا لضيا غوقلب ورفيقًا له في النضال ، ومات مثله قبل الاوان ، عنيت عمر سيف الدين . خطفه الموت سنة ١٩٢٠ ، وهو بعد في السادسة والثلاثين من العمر ، دون ان يرى تحقق حلمه . الا انه خلف اثارًا قيمة تجعله امير القصاصين في الجيل الجديد . قضى معظم حياته جنديًا ، واشترك في الحرب البلقانية فوقع اسيرًا عند اليونان . اما السنوات الست الاخيرة من حياته فقد قضاها استاذًا للاداب في علانية قباتاس Kabataş في استنبول . كان وطنيًا صميمًا خص اكثر قصصه بابطال

الجيش التركي ، فاذا فيها تسري انتفاضات روح ثارية فتية . اما لغته فمثال عما كان يبغي تحقيقه في اللغة جماعة الاقلام الفتية المصلحون : لا تتقاهسا مستحدثات لم تدرج ، بل تعتمد التعابير المأنوسة في الاحاديث الشعبية . من اجل ذلك سارت لعمر سيف الدين شهرة عظيمة بين الشبيبة اذ كان اقرب الكلاسيكيين اليها – وخصوصاً من اجل انشائه الحيّ الجريء الواقعي ، الكثير الصور ، ومن اجل جمله النابضة الخفيفة الوقع المترعة بالمعنى .

ويؤسفني ان لا يسمح لي المجال بنشر واحدة من اقاصيصه التي تجدر قراءتها بجملتها لتذوق نكهتها .

❁

« ان المعلم الذي فتح المنافذ والشرفات على العصر الذهبي من ماضي تركية هو فؤاد قوبرولو ». بهذه العبارة يقدم احد الكتّاب افضل مؤرخ معاصر في تركية . وانما استحدث عن فؤاد قوبرولو كمثال عن النشاط العلمي الذي برع فيه عدد من زملائه . ولد في ٢٢ تشرين الثاني في استنبول حيث انهى علومه الادبية والشرعية وانضوى في جمعية Fecri Ati ، واشترك اشتراكاً فعلياً في حملة اصلاح اللغة . ونظم عدداً من القصائد . الا ان اختصاصه كان التاريخ ، يبدع فيه ويتقنه حتى عين استاذاً للتاريخ في جامعة استنبول وهو بعد في الثالثة والعشرين ، واستمر زمناً طويلاً استاذاً في معاهد استنبول وانقره ، واسس في هذه الاخيرة مجلة دعاها « الامل Ulkü ». آثاره الادبية كثيرة . اما تآليفه التاريخية فلا تقل عن الخمسة والعشرين تتناول مختلف ميادين التاريخ من تاريخ تركية السياسي الى تاريخها الادبي الى تاريخ موسيقاها ، وتاريخ الحقوق وتاريخ الحضارة الاسلامية وتاريخ الآداب الارمنية ، فضلاً عن الدراسات المحددة المواضيع ، ناهيك بالسرد التاريخي . وتجاوزت شهرته تخوم بلاده ، فصار في سنة ١٩٣٤ عضواً شرفياً في اكادمية العلوم في المجر ، وعين سنة ١٩٣٧ دكتوراً شرفياً من اكادمية اثينا ، وفي سنة ١٩٣٩ دكتوراً شرفياً من السوربون . الا انه منذ الحرب الاخيرة حصر نشاطه في السياسة . وهو من مؤسسي الحزب الديمقراطي ، انتخب في ٢١ تموز سنة ١٩٤٦ نائباً عن استنبول

في المجلس الوطني الكبير . وهو المؤرخ الموسوع الكلمة ، فمن المؤسف ان تكون السياسة قد عاقت نشاطه الادبي ، الا ان شخصيته مهما تكن قوية لا يصح ان تحجب عنا عشرات الباحثين الذين يبرعون اليوم في علم التاريخ سواء اكانت مؤلفاتهم مدرسية ام ابحاثاً علمية صرفة.

القصة هي المجال الذي تطور فيه الادب العصري واخصب. فمن الطبيعي ان يسلك الادباء هذا المجال ليتصلوا بالجمهور ويحافظوا على صلتهم به . ولقد طرقوا هذا النوع من عديد وجوهه : من القصة التي تستمد التاريخ، الى التي تدرس الاخلاق ، الى التي تهدف الى اثبات نظرية ، الى التي تحلل النفس الانسانية الخ . . . وانه ليقتضي تعداد طويل ، بل ونافل ، للروائيين ورواياتهم لتتكون لديكم صورة عن سعة النتاج القصصي ووفرته . وعليه فاني افضل تقديم ثلاثة من اشهر الروائيين لا يزالون احياء : منهم اثنان يعقوب قدري ورفيق خالد معاصران اذ ولد كلاهما في سنة ١٨٨٨ ؛ ثم السيدة خالدة اديب وقد ولدت سنة ١٨٨٤ ، واقامت مدة في لبنان قبل سنة ١٩١٤ .

ولد يعقوب قدري دارالوسمانلو في مانيسه ، وتلقى قسماً من علومه في معهد الفرار في القاهرة ، حيث تمكن من الادب الفرنسي . وجاء استنبول سنة ١٩٠٨ فانخرط في جماعة Fecri Ati ، مقترناً تحرير جريدة الإقدام Ikdam ، مشتركاً في نشر مجلة درغه Dergah . وعين نائباً في المجلس الوطني الاعلى ، ثم استدعي الى السلك الدبلوماسي فعين على التوالي سفيراً لتركية في براغ ولاهاي وجنيف .

اما رواياته العديدة فتعرض الحقب التاريخية من الحياة التركية : منها « نور بابا وكيرالك قوناق » Nur Baba et Kiralik Konak على عهد السلاطين - و « بير سرغن » Bir Surgün تروي معيشة المنفيين . و « سادوم وعامورة » تجري وقائعها في ايام احتلال الحلفاء . و « انكره » في العهد الجمهوري الجديد . وان عنده طلاوة في السرد وغنى في الخيال يضعانه في مصاف اكابر الروائيين اما لغته فاقل بساطة من لغة عمر سيف الدين ، الا ان تصميمه اعظم . ولقد

كتب بعض رواياته ، مثل نور بابا وكيرالك قوناق ، حوالى سنة ١٩٢٢ وسنة ١٩٢٣ ، بالحروف القديمة . الا ان المؤلف اجرى تعديلات في معجمه اللفظي ، في الطبعات الحديثة ، ليتماشى مع تطور اللغة . وقد اثارت حكاية « نور بابا » نقاشاً حامياً . لان الكاتب وصف فيها سيرة احدى تكايا البكتشيه او البختشية Bektachis في اواخر عهدها ، راسماً عنها لوحة واقعية تخللها بعض المديح . على انه اوضح في مقدمة وضعها للطبعة الثالثة انه لم يتعمد ان يعطي حكماً قاطعاً في ماضي البكتشيه ، ولكنه وصف ما شاهده فيها في سنواتها الاخيرة التي سبقت الجمهورية

اما روايته بير سورغون Bir Sürgün التي تصف معيشة المنفيين في فرنسة فمحشوة بالكلمات الفرنسية ، بينما رواياته الاخيرة مكتوبة بلغة اصفى تركية . ولقد الف قدري كتابين مهمين الاول عن سيرة اتاتورك والثاني عن الشاعر احمد هاشم الذي سيأتي الكلام عنه . وله ايضاً آثار صحفية مهمة ، كما ان له محاولات في اصول الفن ، وفي السياسة ، تبرهن عن نفاذ البصيرة .

رفيق خالد قراي هو ، بلا جدل ، من اسياد البيان الحديث ، شخصيته تختلف جداً عن شخصية يعقوب قدري ، استطاعت ان تفرض ذاتها على الجمهور حالاً . وهو اليوم من ارفر الادباء قراء . واخبرني بذاته ان بعضاً من رواياته بلغت طبعاته الاثنتي عشرة . يبدع في نقد الاخلاق ، وعنده تهكم لاذع يحق له من اجله ان يدعى « الولد الرهيب » في الادب . ثقف في عالمانية غلطه سراي في استنبول ثقافة فرنسية الاصول . واستهوته ، منذ الصبا ، المبادئ الاصلاحية فانخرط في جماعة Feeri Ali . ساهم كثيراً في مجلة « المجلة الجديدة » التي انشأها ضيا غوكلب Ziya Gokald ، وكان خالد يجله اجلالاً عميقاً . الا ان براعته التهكمية تجلت على الخصوص في مجلة Aydedi (القمر الاب) . ولكن هذه البراعة هي ما اضره . وكان قد شغل عدداً من المناصب الادارية . فلما تأسست الجمهورية طفق يدعو الى سياسة المسالمة والتفاهم ، اعتقاداً منه ان الخلاف بين تركية والبلدان الاجنبية

مما يمكن تسويته بلا قتال . من هنا انه استهدف سياسة حكومة انكره في انتقاداته ، فكان ان وضع المجلس الوطني الاعلى اسمه على قائمة المائة وخمسين شخصية غير المرغوب فيهم . فاضطر ان ينفي نفسه ، واستقر في سورية قريباً من بلاده ، حتى سنة ١٩٣٨ . ولكن من الواجب الاقرار بانه لم تحم شبهة حول وطنيته اللاهبة وتعلقه ببلاده . وعندما رجع الى بلاده بقي وفياً لدعوته الصحفية ، فكان يذيع مقالاً يومياً في جريدة اقشام Akçam ، كما استلم تحرير المجلة التهكمية Aydedi ينشرها مرتين في الاسبوع . وتبلغ مؤلفاته الخمسة والعشرين ، تنبي عن غنى مواهبه وتنوعها . عكف رفيق خالد على تصوير حياة الشعب الاناضولي ، فابدع كما سجل نواحي من المعيشة في استنبول قبل الثورة وبعدها . له طلاوة في السرد لا تدانى ، وقلم حي لاذع ، وشعور مرهف ، ومخيلة تجعل من لوحاته كلها روائع صغيرة ستخلد حتماً كافضل تراث من جيله .

اما خالده اديب انور Halide Edip Andivar فقصاصة من الطراز الاول . ثقافتها انكلوسكسونية لانها من خريجات الكلية الاميركية في استنبول . بدأت الكتابة في مطلع الشباب فاصابت نجاحاً . وانصرفت للتعليم فتولت تدريس الآداب الاجنبية في علمانية البنات وفي الجامعة . الا انها غادرت تركية في مستهل العهد الجمهوري مع زوجها عدنان انور Adnan Andivar واقامت في باريس ، ثم انتقلت الى اميركة حيث حاضرت في جامعة كولومبية . وفي سنة ١٩٣١ — ١٩٣٢ قامت برحلة الى الهند والقت سلسلة محاضرات ، ثم عادت الى تركية سنة ١٩٣٩ ، حيث تسلمت منبر الادب الانكليزي في معهد الادب في استنبول . تكتب خالده اديب الانكليزية بذات السهولة التي تكتب بها لغتها الاصلية . وقد وضعت بعض تآليفها مثل « دكان الذبان Sinekli Bakkal » في الانكليزية اولاً ثم نقلتها الى التركية . نشرت عشر روايات ومسرحيتين وتاريخاً للادب الانكليزي وعدداً من المحاولات والمقالات . في تآليفها نزعة روحية بينة ، ويتميز ابطال قصصها والبطلات برقة العواطف . وتأتي خالده

اديب في مقدمة سلسلة من الاديبات القاصات يصغرنها سناً ، الا انهن احتللن مقاماً في الادب التركي . ومن يمكنان في الادب نشاط اديبات تقدمنهن، ظهرن في عهد التنظيمات وتميزن بالرومنطقية فكان منهن شاعرات مثل نزار خانم Nigar Hanim وفاطمه عليه خانم Fatma Aliye Hanim وقاصات مثل امينه سنيه خانم Emine Seniye Hanim . ويمكن القول ، نظراً لتزايد الفتيات المنتسبات الى معهد الآداب ، ان فريق الاديبات سيتضاعف بمن سينضمن اليه من اديبات ممتازات المواهب ، قد صقلتهن المدرسة الحديثة .

وقبل ان نصل الى الشعراء ، وبهم نختتم عرضنا هذا ، ارى من الضروري ان استرعي انتباهكم ايضاً الى شخصيات ادبية ثلاثة يتمتعون بشهرة عظيمة لاسباب مختلفة :

اولهم رشاد نوري غونتكين Reşad Nuri Guntekin وهو اديب في الثامنة والخمسين من العمر ، يتميز بوفرة تآليفه وتنوعها ، ذو ثقافة تركية فرنسية ، كرس حياته للتعليم وصار اليوم مفتشاً للطلاب الاتراك في باريس . كانت روايته الاولى الملك الصغير Çali Kusu مبدأ شهرته ، وقد اتبعها بعشر روايات ، فضلاً عن عدد من الاقاصيص والتمثيليات المتنوعة من الهزلية ، الى المآسي الى مسرحيات الصغار ، ناهيك بما نشره من اخبار رحلاته وما عرضه ونشره من نصوص مختارة (Anthologies)

اما حمدالله صوفي تنريوفر Hamdullah Suphi Tanriöver فكان بالعكس مقلاً بالكتابة ، الا ان تأثيره كان عظيماً . استمر نائباً في المجلس الوطني الاعلى منذ تأسيس الجمهورية ، ما عدا ثلاثة عشر عاماً كان في اثنائها سفيراً لتركية في بخارست ؛ وولي وزارة المعارف مرتين . ومن اهم الاهداف التي كرس لها حياته تثقيف الشبيبة ، وقد راح منذ سنة ١٩١٢ يرئس نوادي الشباب . ثم انه خطيب لامع ، جمعت خطبه في الشباب في مجلدين بعنوان Dag Yolu et Gune Bakan ويمكن اعتبارها منهجاً روحياً الشباب . وتأثيره يهدف الى الروحية اذ انه يتوخى ان يحبب الاصول الدينية للفتيان . وكتب

ايضاً عدة مسرحيات شعرية وعدداً من المقالات . الا انه يصح عنه ما قاله احد الكتاب الاتراك : « ينحصر عمله كله في بعث الضمير المسلم وتثقيفه لمقاومة النزعات المادية. » وانه لمن المهم ان نشير الى وجود مثل هذه النزعة التعليمية ، الروحية والدينية ، التي يعتبر حمدالله صوفي اهم ممثل لها .

تطورت الصحافة في ظل الجمهورية وانتشرت انتشاراً عظيماً كما تبين مما سبق من الامثلة . ويمكن القول ان الادباء الاتراك الكبار قد عملوا في الصحافة باجمعهم ان قليلًا او كثيراً . فلا بأس اذاً ، ان نذكر الصحافة كاحد الانواع الادبية ، ونذكر احد اساتذتها الحاليين : فالح رفقي أتاي Falih Rifki Atay . لبث زمناً في جريدة « طنين » وكان احد المناظرين من كتابها . وهو اليوم يرئس تحرير جريدة « اولوس » شبه الرسمية - وهذا يعني انه يُعتبر، مع حسين جاهد يالتشين Huseyn Cahid Yalçin امير الصحافيين المعاصرين . وعرف أتاي بحماسه الملتهب في الدفاع عن العهد الجديد ، الا ان مقالاته لا تنحصر في ميدان السياسة ، بل تتخطاه بعيداً . وقد تميزت له مقالات مثلًا عن رحلاته الى ايطالية ، والاتحاد السوفياتي ، واميركا . ونشر سنة ١٩٣٢ قصة ذات دروس اخلاقية ، كما نشر قصة ثانية سنة ١٩٣٤ عن انكلترة ، عنوانها « على ضفاف التاميز » ونالت القصتان نجاحاً باهراً .

❀

اما الشعر فمكانته في الادب الحديث اضأل منها في القرن الماضي ، بالنسبة لمجموع النتاج الادبي . لان كتاب اليوم يفضلون التعبير المباشر . وكأن نظرية الفن للفن قد تطورت حتى عادت الى ما نادى به نامق كمال قديماً « الفن للمجتمع » او على الاصح « الفن للشعب » . ومع هذا فان عدد الشعراء المحدثين غير قليل . الا اننا سنقتصر الحديث على الاثنين المميزين ، اولهما احمد هاشم Haçim وقد توفي سنة ١٩٣٤ ، اما الثاني فلا يزال حياً وهو يحيى كمال Yayah Kemāl

ولد احمد هاشم سنة ١٨٨٣ في بغداد ، من عائلة عربية الاصل ، وقدم الى استنبول في الثانية عشرة من عمره ، واقام فيها يتلقى دروسه في علمانية

غلطه سراي ، ثم درس الحقوق . وتولى عدداً من المناصب الادارية ، فضلاً عن انه كان استاذ الفرنسية في علمانية ازمير ثم في مدرسة العلوم السياسية . وزار فرنسة مرتين في ١٩٢٤ و ١٩٢٦ .

وهاشم شاعر رمزي . كانت قصائده الأولى كلاسيكية الاسلوب ، الا انه ما لبث ان استهوته الرمزية ، فبدت في قصائده الاخيرة فائقة النعومة . ولقد بسط نظرياته الشعرية في احد مؤلفاته ، كما نشر عدداً من المحاولات اكسبته شهرة واسعة .

اما يحيى كمال Yahya Kemal فاوفر الشعراء شعبية في تركية . وما ذلك لوفرة نتاجه ، الا انه بفضل شاعريته التي لا تماثل وبفضل ثقافته الكلاسيكية العميقة ، وبفضل معرفته للشرق وللغرب ، استطاع ان يكون في اشعاره خلاصة العالمين . ثم ان فيه بساطة طبيعية ، الى ظرف متوهج ، تجذب اليه محبة الجميع من اول وهلة . وقضى يحيى كمال ردحاً من شبابه في باريس ، فاتصل بالحي اللاتيني وتابع دراسات كلية العلوم السياسية . وعاد من فرنسة وقد انطبعت شاعريته بالبارناسية ، وان كان البعض يرى ان شعره ليس محرراً من شخصيته للدرجة التي يمكن معها عده من اصلاء تلامذة البارناس . واشترك يحيى كمال اشتراكاً فعلياً بالثورة ، ثم دعي للنيابة وارسل سفيراً ، وهو اليوم اول ممثل لتركية في دولة الباكستان .

اما شعره فيتدفق فيه حب الوطن بما يعطيه طابعاً تركياً مميزاً ، وان كانت شاعريته تختلف عن الشاعرية التي اثرت عليها الثورة في الشعراء المحدثين : فهو لا اكثر واقعية ، وتعبيرهم مباشر ، وشخصيتهم اكثر تحديداً ، ثم هم اقل اهتماماً بشؤون الغرب . وبخصوص التأثير الغربي فان موقف يحيى كمال كان مناقضاً لموقف ضيا غوكلب . فهو يعتبر ان الشخصية التركية قد توطدت باتصالها بالغرب ، وعليها ان تستمر في اتجاهها : « وانما فنوننا التركية كلها ، كما قد كتب ، سواء كانت اولية او ثانوية ، سواء الهندسة او الموسيقى او تخطيط الحواضر ، قد تطورت بعد ان توطد السلجوقيون في الاناضول اليونانية ، وعلى اثر قيام السلطنة العثمانية . وما ان توحدت الروملي واستنبول بشكل لا ينفصم ،

في السلطنة حتى اعطى هذا الوطن الجديد للامة كياناً جديداً مع ظروف جديدة للعيش » — ان في شعر يحيى كمال تتجلى هذه الخلاصة التي تحماها نفسه من الصوفيتين الشرقية والغربية .

احمد هاشم ويحيى كمال وضيا غوقلب هم الشعراء الثلاثة المبرزون في الجيل الذي هيأ الثورة واشعلها . اما الجيل الذي تلاه والذي بدأ يكتب حوالي سنة ١٩٢٠ فيظهر في انتاجه الدرس الذي اشاعه فجر الحرية الجديد، وقد عاشوه وهم على عتبة الرجولة . من هنا انهم واقعيون ؛ واشد اهتماماً بالمشاكل الاجتماعية التي اثارها العهد الجمهوري الجديد في البلاد . هذا ما يظهر في اثار فاروق نافذ Faruk Nafiz ، وناظم حكمت Nazim Hikmet ، ونجيب فاضل Necip Fazil ، وبهجت كمال Behçet Kemal ، واحمد محب Ahmet Muhip ، ويashar نابي Yasar Nabi ، واحمد قدسي Ahmet Kudsi وغيرهم .